دراسة مخطوط التائية الكبرى لابن الفارض

د .محمد بوسكين*

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله وبعد.

إن الغاية الأساسية من دراسة هذا المخطوط هي إبراز الجانب الشعري الصوفي الذي يعتبر من أهم تراث الأمة الإسلامية والذي أبدع فيه ابن الفارض وخصوصا في تائيته الكبرى.

وعمر ابن الفارض يصور أطوار حياته الروحية في أحواله أي في تجربته الحياتية وما يتولد عنها من محبة إلهية التي حظيت بها التائية الكبرى باهتمامه، بل شكلت أهم قصائده على سائر أشعاره و مطلعها:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأس محيا من عن الحب جلت

وقد عني الشرّاح بشرح التائية الكبرى شروحا لغوية وصوفية كما عني شارحها السيد أحمد المهدي عندما كان الامتزاج الثقافي ببلاد المغرب الإسلامي والمشرق متواصلا.

كان له الأثر الواضع في نفس الشارح رغم تكتل القوى الفرنسية المقنعة تحت راية الصليب، بعد احتلال الجزائر واستعمارها حيث وقعت معارك طاحنة بين الأمير عبد القادر الجزائري والجيش الفرنسي، وكان الأمير يرى وجوب تكتل كل قوى المفكرين من العرب والمسلمين لحماية الدول العربية والإسلامية وتعبئة الذين

*- قسم علم الاجتماع، جامعة وهران.

أبدعوا وشرحوا وألفوا ونسخوا علما زاخرا كابن الفارض الذي استشعرته هجمة مادية طاغية غربية على الأمة العربية والإسلامية والذي عايش العصر الأيوبي والذي لن يستطيع أحد أن ينزع بصماته من فوق قبة الشعر الصوفي .

فلا ضير من دراسة تائيته الكبرى مع الإشارة إلى أن عمر ابن الفارض الذي يمثل عامل جدب ودعوة لرموز الصوفية عبر الأجيال كما قال الشاعر:

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضي المحبوب صح لك الوصل

والشعر الصوفي لا يحتل اللهو فيه ركنا ركينا في الأخلاق لدى الصوفية، ولكي نتعرف على التعبير الرمزي وعن مشاعر عمر ابن الفارض واتجاهاته بتطهير النفس من الآفات الاجتماعية ومما يؤيد الإيمان والتقرب للحضرة الإلهية التي تتعلق بتطهير القلوب من شوائب الشر تمس جوارح النفس البشرية.

وعندما نقرأ التائية الكبرى يتكشف لنا عما في قلب ابن الفارض إمام المتصوفة، الذي رفض الدنيا وأعرض عنها، واستمتع بما في العوالم من مظاهر كونية حركت قلبه وعقله نحو عظمة الله جل وعلا، بآيات دلائله على طلاقة القدرة وكمال حقائق الوجود في نفسه وفي الطبيعة. وفيما يلي محاولة لدراسة مقتطفات من تائيته الكبرى المسماة "بنظم السلوك" وذلك في إيجاز شديد نظرا لأهميتها بغية تبيان مقاصدها الرمزية.

التعريف بالناظم " الشاعر":

هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن الحموي الأصل المصري مولدا، عرف بابن الفارض حيث كان أبوه على ما يبدو من اللقب يقوم بإثبات فروض النساء على الرجال. ولد بمصر سنة 576 هجرية/1181م والمراد بمصر هنا "القاهرة". ولد عمر ابن الفارض ونشأ في بيت علم ومعرفة، وتعلم على يد أبيه في حلقات الأزهر، ودرس الحديث والفقه وفي مجالسه، حتى صار أحد شيوخه حيث يتميز نظمه بحلاوة الأسلوب، وعذوبته وروعة الصورة وجمال الموسيقى في نظمه، فضلا

عن منزلته كناظم صوفي من الطراز الأول ومكانته الكبيرة بين الشعراء قديما وحديثا.

ونظمه كله عبارة عن ابتهالات وتسابيح وتراتيل ومناجاة وتأملات قل أن نجد لها نظيرا أو شبيها في النظم الصوفي المعهود بالعذوبة والبلاغة الشعرية[1] فقد نشأ على ضفاف واد النيل وعايش جماله وشرب من مائه وعشق مرآة الطبيعة بدلالتها في العوالم الإلهية في كل الكائنات والموجودات والنباتات الوفيرة التي كانت على ضفاف النيل، والحيوانات والكواكب والنجوم الساطعة والليل والنهار الذي ملأ الحياة نورا كل ذلك حبا في الذات الإلهية، وما أقدسه من حب وما أجمله وما أروعه من هيام. عايش الناظم عصر الانحطاط حيث عاش الاضطرابات السياسية في الشؤون الداخلية والخارجية، كقيام دولة وسقوط أخرى، فأورثه ذلك كرها للحياة الدنيوية وعاصر أيضا الحروب الصليبية وانقضاض الدول الأوربية على المقدسات الإسلامية وعلى أراضي الشعوب العربية والإسلامية. وقيام المسلمين بالكفاح المسلح ضد الغزو الصليبي، فأورثه ذلك أيضا تصميما وإيمانا ويقينا بالله عز وجل، الذي يرجع الأمر إليه كله وكل شيء يتفرد به، وبهذا الترجيح انفتحت أمام ابن الفارض الشاعر الصوفي العظمة الإلهية وكمالها، والاطمئنان من أعماق روحه أن الله هو الحي القيوم، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، فعال لما يريد، وهو الأول والآخر وهو الظاهر والباطن، وأرست هذه الصفات ورسخت في فكر ابن الفارض الذي فتن بجمال الشعر الصوفي وما تجلى فيه من مكاشفات، وما عرض له من الأحلام، على مصائر الحياة والبشرية، وهام بالحب الإلهي بل سكر بحبه الكريم.

عايش الناظم عصر الانحطاط حيث عاش الاضطرابات السياسية في الشؤون الداخلية والخارجية، كقيام دولة وسقوط أخرى، فأورثه ذلك كرها للحياة الدنيوية وعاصر أيضا الحروب الصليبية وانقضاض الدول الأوربية على المقدسات

الإسلامية وعلى أراضي الشعوب العربية والإسلامية .وقيام المسلمين بالكفاح المسلح ضد الغزو الصليبي، فأورثه ذلك أيضا تصميما وإيمانا ويقينا بالله عز وجل، الذي يرجع الأمر إليه كله وكل شيء يتفرد به، وبهذا الترجيح انفتحت أمام ابن الفارض الشاعر الصوفي العظمة الإلهية وكمالها، والاطمئنان من أعماق روحه أن الله هو الحي القيوم، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، فعال لما يريد، وهو الأول والآخر وهو الظاهر والباطن، وأرست هذه الصفات ورسخت في فكر ابن الفارض الذي فتن بجمال الشعر الصوفي وما تجلى فيه من مكاشفات، وما عرض له من الأحلام، على مصائر الحياة والبشرية، وهام بالحب الإلهي بل سكر بحبه الكريم.

وقد أفاض الله عليه من العلم وعزة النفس فلم يوصف بما وصف به شعراء الملوك والأمراء والأعيان أو شعراء ليلى أو عزة أو بثينة. وسواهم من شعراء الغزل في حين أن شعر ابن الفارض نسيج يمتاز بالورع وحده، ولا يخفى على أحد أن ابن الفارض شرب المدامة رمز الحبيب حتى سكر منها قبل وجود كرم العنب صفاء و اتخذه وسيلة ليخاطب الله سبحانه وتعالى خطاب شهود فيقول:

ما رأت عيني حسنا وكمثلي بك حبا لم ترى

ويرى حبه الأوحد هو العقيدة والدين والثبات، فيقول في وجد وهيام:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب وان ملت يوما فارقت ملتي[2]

ما أروع أوصاف ابن الفارض وما أحلاها فهو شاعر العشق الإلهي. شاعر اللظى والعذاب والنار المشتعلة والألم، ويتضح في ثنايا ما تقدم أن شعره غاية في الجمال، ومن ثم يبين في جلاء الوشائج البعيدة المرمى فكنى بالملة عن العقيدة. بما وجد من اللذات في الدين وحبه، فملئ فؤاده شوقا تحصل على الحب الإلهي وطار به طربا، وما ينطوي عليه هذا الحب من ظهور ضياء ملأ الدنيا بالمعاني الصوفية. وفي وجود الحب الذي يسمى سكرا ومن أجل التهيؤ للاسكار سكر

ابن الفارض اشتياقا،كما جرى عند متقدمي الصوفية (رابعة العدوية)، التي كانت تحفة فنية وأدبية جميلة فاتنة منذ قديم الزمان، وكثيرا ما أصبحت مقصودة معشوقة الاستزادة الصوفية، ولعل ابن الفارض هو شاعر الحب الإلهي قد تأثر بها، وهذا من شأنه أن يكون شعره مرآة ناصعة صادقة تنعكس صفاء ونقاء، والخمرة الروحية كما يقول ابن الفارض، الذي انقادت نفسه إلى الحب الإلهي.

التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك:

اهتم ابن الفارض وهو في سن مبكرة بالحب الإلهي الذي عكف عليه في أول عمره بتائيته الكبرى في البيئة العلمية الصرفة التي عاش فيها في البيت وفي المجتمع الذي دفعه إلى نظم الشعر، وسيرته التي سار عليها، تعتبر مرآة التأمل في كل شيء لاسيما أن ابن الفارض شاهد عظمة الله عز وجل في كل كبيرة وصغيرة، وطبيعي أن يكون مكبا ليله ونهاره على النظم في حبه الإلهي كونه لجأ إلى مناهج الطرق الصوفية في مجال معاملة النفس ومجاهداتها ورياضتها حتى تخضع للتنشئة الاجتماعية التي تحتوي على مجموعة من الأنماط السلوكية التي تساعد الفرد على التوائم والتكيف مع البيئة الاجتماعية (الصوفية) ليصبح عضوا صالحا في حياته الروحية والخلقية شأنه شأن إبراهيم ابن أدهم الذي كان في كل أطوار حياته صوفيا بمعنى الكلمة، حتى أن ابن الفارض صار صاحب مكانة لامعة إذ تتجاذبه بذرته الصوفية في جو روحي إذ يظهر للشعر شرعيته وما خفي من معانيه، الشعورية والدينية التي انشغل بها المتصوفة وقتئذ، حتى صار القرن السابع للهجرة قرن التصوف المتناهي إلى تائيته الكبرى وهو نفس القرن الذي عاش فيه ومات فيه، في حين ظفر على غيره بحظ موفور توجه بعناية من القراءات عن التصوف ستكون شواهد شعرية على موضوع التصوف، وذلك على وجه لم يحظ أو يتهيأ لقصيدة ناظم صوفي كابن الفارض: فقد حوت الدراسات التي أثبتها مترجموه والجدل الذي قام بين أنصاره وخصومه حول عقيدة

ابن الفارض، حتى لقد كفره خصومه، وبرأه أنصاره، بوصفه منظرا للشعر الصوفي، على نحو يقربه من متقدمي الصوفية كرابعة العدوية عندما سئلت عن حقيقة عبادتها لله عز وجل فأجابت بقولها: "ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبا لجنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبا له وشوقا إليه[3] " فيكون بذلك ابن الفارض محبا لله والسعي وراء ما هو أفضل وأكمل إلى أن ينتهي به المطاف إلى المحبوب. وليس كما قال خصومه من القائلين بالإتحاد والحلول ووحدة الوجود، أو لسوء فهمهم نظمه، بحيث تتشعب عليهم تأويلاته كلما أرادوا أن يتبينوا حقيقة ما انطوى عليه نظمه وبما اشتمل عليه من المعاني كأن، يستشهد بآية أو حديث معا من معاينهما وكل ذلك بإيجاز وبراعة ولياقة نحو قوله تعالى: "**لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمومنين رؤوف رحيم**". التوبة آية128 إلى قوله عز وجل: "**إن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**". التوبة آية 110.

وابن الفارض يضمن ذلك في تائيته الكبرى فيقول:

وقد جاءني مني رسول عليه ما عنيت . عزيز بي . حريص لرأفة
ومن عهد عهدي قبل عصرى عناصره إدار بعث،قبل إندار بعثة [4]

كما يشير ابن الفارض إلى الحديث القدسي القائل: (...وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه،ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها...).[5]

فإن ابن الفارض تأثر بالقرآن العظيم حتى صار نظمه ملائما لما جاء به القرآن والحديث القدسي من الله العلي الأعلى، حتى مضى ديوان ابن الفارض

منذ القرن الثامن عشر الميلادي وما رافقه من شرح ودراسة وخاصة تائيته الكبرى موضوع بحثنا بل تجاوز بما استوعبته هذه الأخيرة من عناية فائقة لأنها عالجت المعاني الصوفية المستضافة بصبغة فلسفية .

وقد سلك ابن الفارض مسلك أهل الباطن ولم يوظف الألفاظ على ظاهرها، بل تجاوز الظاهر إلى ما وراءه من الباطن، وهذا ما يدعو مقارنته بابن عربي بالنسبة للكتابة الصوفية[6] على وجه يجعل من الصعب الاهتداء إليهما، من موجهات تأويلهما حتى تكشف لنا القضايا المعدة فيه مختلفة، وحتى التائية الكبرى التي يصور فيها ابن الفارض شعوره بالحب الإلهي الموجود في الطبيعة، وفي صور مختلفة، فهذه القصيدة هي أروع وأنينع ديوانه الذي ازدان بها وذلك يتبين لنا من العناية الفائقة التي خصت بها، كقصيدة واحدة ينظر لها أنها بستان ابن الفارض في صورة حية صادقة للحب الإلهي الذي عاش معه ابن الفارض ومات فيه، و تائيته الكبرى التي ما يزال لها صدى يتردد منذ القرن السابع الهجري حتى الآن في الآذان، ظلت حافلة بالألفاظ وأذواقها، الروقية ومذهبها في الحب الإلهي،كما تقول الصوفية "المحب لابد أن تلحقه سكرات المحبة"...ومن ثم يكون القصد ذكر الحبيب، رب العالمين وخالق البشرية والعوالم أجمعين فهام وسكر بحب الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

حياته العلمية:

تعلم ابن الفارض على يد والده في أول العمر وفي حلقات الأزهر، حفظ القرآن العظيم وعلوم الحديث والفقه وفي مجالس السادة الصوفية، حتى لقب سلطان العاشقين وإمام المحبين. حيث كان شاعر الحب الإلهي المرتكز على الفلسفة القرآنية مصداق قول الله سبحانه وتعالى: "**قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**" آل عمران آية 31 وأيضا، قوله تعالى: "**فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**" المائدة الآية 54.

أما تائية ابن الفارض فقد عني بها خلق كثير، شرحا وطباعة كبدر الدين حسن البوريني وعبد الغني النابلسي النقشبندي القادري [7].

وكان محبا للخلوة منصرفا عن الجاه ومتاع الدنيا، وإيثار الوحدة والعزلة والابتعاد عن الناس حتى صار مثلا للمتصوفة والشعراء تأثرا وتأثيرا، وهو بعيد كل البعد عن الزخرفة والتلوين والتنميق، لأن قصائده تمثل أنقى حالات الحب الإلهي ويتجلى ذلك في تائيته الكبرى، التي تؤكد طبيعة الحب الإلهي لأنه عاشق حقا، عندما يتحدث عن هذا الحب الذي أسقمه وأسكره وآلمه، يقول:

ولم أر مثلي عاشقا ذا صبابة ولا مثلها معشوقة ذات بهجة

ويقول:

ومن لم يكن في عزة الحب تائها يحب الذي يهوى فبشره بالذل[8]

وابن الفارض عاش عصر صلاح الدين الأيوبي وشاهد انتصاراته على الصليبيين في معركة حطين وغيرها ببلاد الشام.

ولانصرافه عن الدنيا فقد عرض عليه القضاء فرفضه، وتفرغ لعبادة الله وذكره بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر الشريف، ثم سافر إلى الحجاز، فأقام في مكة المكرمة حوالي خمسة عشر عاما، قضاها في البقاع المقدسة هائما مذهولا عاشقا متيما، ثم عاد إلى مصر وإلى الأزهر الشريف، حيث أصبح أحد شيوخه الكبار، إلا أنه اعتزل الناس وعكف في سفح جبل المقطم وتفرغ نهائيا للعبادة، وهو أكثر شهرة وذيوعا حتى بالنسبة للشعراء الصوفية، أولاه المترجمون والباحثون من عرب ومستشرقين اهتماما كبيرا، ومات سنة632هـ/1234م[9] بعد ما عاش ستة وخمسين عاما.

بعد حياة حافلة بالزهد والعزلة سالكا فيها سلوك طريق الواصلين، وعلى هذا كله تترتب نتيجة واحدة هي تائيته الكبرى التي هي أشهر قصائده الصوفية إذ تحتوي على762بيتا[10] وفيها خلاصة فكره وأذواقه وآرائه في التصوف بل إن

ما تشمل عليه من المعاني والحقائق وما تقدمه من إشارات واصطلاحات من الآيات القرآنية والأحاديث القدسية، وشواهد صدق تستجيب لأدلة الحق على أن الحب الذي ترمز إليه هذه القصيدة ليس حبا من طراز حب المعشوقة الآدمية، وإنما هو حب الموجودات الإلهية التي عنها تشكلت بداية الكائنات، حيث كانت غاية ابن الفارض هي الفناء في خالق هذه الموجودات، وهذا ما أظهرته تائيته الكبرى لما فيها من إدراك ومعرفة ومهارة فائقة، وقدرة عجيبة، مقرونة بالحب الإلهي، الذي عني به طيلة حياته في كل حال، فابن الفارض هو صاحب المعرفة الحقيقية بالأصالة وغيره صاحب هذه المعرفة بالتبعية[11] إن تائية ابن الفارض الشعرية خاصة قد أظهرت عبقريته في ترنم أناشيده اللامعة بين المتصوفة، بل يعد في نظري الصوفي العربي الأول الذي جسد شعر الصوفية بعناية فائقة بدأة بمولده وانتهت بوفاته، مسألة الحب الإلهي. فهذه القصيدة تعتبر ترجمة ذاتية لابن الفارض في أعمق أبعاده أو ما يطلق عليه الأنا الجمعي الذي يجد حقيقة ذاته في الاندماج التام مع الحقيقة العليا وهي في الاصطلاح الصوفي النور المحمدي .

التعريف بالشارح:

شارح هذه التائية هو السيد أحمد المهدي عبد القادر بن إسماعيل الصالح الحسيني المسيردي وطنا الغرماوي قرية. شرحها وقدمها لأخيه في الله وصديقه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. سيدي أحمد بن بختي المسيردي وطنا الغرماوي قرية وكان الفراغ من تقيد المجلد المبارك بعد صلاة الظهر يوم الإثنين الخامس من شهر ذو القعدة 1283هـ/1866م .في قرية أغرم التي تقع في أسفل جبل شاهق يسمى بجبل زندل المشهور في الجغرافيا عالميا وتنبع في أسفله عين جارية لا ينقطع ماؤها، وبين الجبل والعين يوجد مسجد كان له تاريخ في إخراج الرجال حفظة القرآن العظيم يؤمه حفاظ كتاب الله العزيز من الشرق والغرب،

ومن هؤلاء السيد أحمد بن بختي الذي كان يحفظ القرآن العظيم عن ظهر قلب ويتلوه تبركا على الفقهاء العظام، ولما توفي قام مقامه السيد محمد بالحاج الغرماوي على امتداد تاريخ الغرب الجزائري، حتى جاء الاستعمار الفرنسي الغاشم، حيث وقعت معارك بين الأمير عبد القادر الجزائري والجيش الفرنسي، بحيث قتل عدد من جنود الاحتلال وعلى رأسهم ضابط سامي برتبة عقيد كما يقول أهل القرية(كبار السن) بجبل قبوز المقابل لقرية (ينبو) وكذلك معركة النخلة بسيدي بوجنان دائرة الغزوات حاليا التابعة لولاية تلمسان إداريا. وحسب ظهور تائية ابن الفارض لشارحها السيد أحمد بن محمد المهدي الأنف الذكر شأن الحوادث التي شهدتها الجهة الغربية، من الجزائر وما لقيت المتصوفة من العنت من طرف الاستعمار ومن المواجهات والأهوال المصاحبة بالظلم والانتهاكات لحرمة الأسرة المسلمة وعمليات التطهير العرقي، والقتل الجماعي والأعمال الحربية الوحشية، وتدمير الممتلكات والعنف الجنسي المنظم والموجه ضد النساء المسلمات خاصة، والممارسات الوحشية والجرائم التي ارتكبها الجلاد الفرنسي في حق شعب مسلم صاحب الأرض وصاحب الحق، هذا يدلنا على أن هناك رجالا لا تغلبها العواصف، فهناك من اهتم بالجانب العلمي، ولا ننسى أن عصرهم كان صعبا تقدر فيه غياب آلات الطبع، لا كما نحن عليه الآن، وكان المثقف يستعير كتابا لنسخه كهذه التائية التي نتناولها وهي مخطوطة نادرة تبدو لنا ذات قيمة علمية وأدبية في ميزان الدراسات الحديثة كونها انطوت على مذهب ابن الفارض في الحب الإلهي والتي نجدها تجاوزت الأدب العربي إلى أرقى الآداب الشرقية والأوربية لاسيما الإسبانية والفرنسية والإيطالية والألمانية وسواهم من شعرائهم الرومانسيين ورغم التشديد وعقبات الاستعمار الغاشم، كان الاهتمام بالتراث الثقافي والاتصال بين المثقف المغربي والمشرقي قائما على الوعي رغم المسافات الفاصلة بين المغرب الإسلامي العربي والمشرق فيما يتعلق الشعر

الصوفي وما عبر عنه ابن الفارض لمريديه الذين ينزلون في بستانه، ويقطفون من أزهاره، وينهلون من مورده، فأظهر عيان الموجودات لخالق الموجودات.

هذا مقصدنا وإن كانت التائية الكبرى في وقتنا الحاضر معروفة كثيرا لدى المثقفين وإنما آثرنا متابعة السلف لإظهار خصوصية الصورة التي تمثل فيها ابن الفارض وقد تمثلت في تائيته الكبرى وحتى في خمريته الميمية في الشعر الصوفي، حتى لقد عد إمام الصوفية بلا منازع، وهذه مقتطفات في تائيته الكبرى:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأس محيا من عن الحسن حلت
هبي، قبل يفني الحب مني بقية أراك بها لي نظرة المتلفت
ومن درجات العز أمسيت مخلدا إلى دركات الذل من بعد نخوتي
وكن صارما كالوقت،فالمقت في عسى وإياك علا فهي أخطر علة
وإن نطقت كنت المناجي كذاك إن قصصت حديثا وإنما هي قصت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا وفي رفعها فرقة الفرق رفعتي
ومن فاقتي سكرا عنيت إفاقة لدى فرقتي الثاني فجمعي كوحدتي فاقتي
وملك معالي العشق ملكي وجندب ال معاني وكل العاشقين رعيتي
وتسمى فيها مريدا فمن دعى مرادا لها جذبا فقير لعصمتي
ومن قائل بالنسخ والنسخ واقع به أبرا وكن كما يرى بعزلة
فحي على جمعي القديم الذي به وجدت كهول الحي أطفال صبية
ومن فضل ما أسارت شرب معاصري ومن كان قلبي فالفضائل فضلتي[12]

وهذه الأبيات من قصيدة ابن الفارض التائية الكبرى مشهورة، ومع صعوبة قافيتها وهي التاء المكسورة، فقد دللت على شاعريته، وإن كان شغوفا بالجناس وكثير ما يميل إلى المحسنات البديعية، والتي هي في أعلى درجات الرؤية الحسنة والإحسان في صورة مستجدة تزيدها روعة وبيانا وأكسبتها موسيقى جياشة.

وأبيات القصيدة تتعلق بالمحبة أو الحب الإلهي،بحسب الوحدة الفنية التي هي متابعة الوضوح في كل الأغراض الحسية والمعنوية، حيث تترابط الألفاظ في معانيها الحقيقية وصورها وأنغامها مع التجربة التي قصد ابن الفارض التعبير عنها، والمعنى الذي قصده هو التعبير عن عاطفة الحب الروحي الذي تمثل في هذه الأبيات التي تجري في إيقاعات متصلة بالموسيقى العذبة والموجودات التي تتواكب فيها مرآة متلاحقة تعتبر دوام التلاقي من السرور بالموجود،وكذلك كانت عاطفة الحب عند ابن الفارض لتجربته الذاتية ووجدانه، الذي يجري ويستحضره دوما (أعطني) في إيقاعات موسيقية ذات نغمات عذبة وتتواكب والمحسنات البديعية منها صور متلاحقة تهذيبا تعد أجزاء متماسكة من التجربة. وتنتهي تائية ابن الفارض إلى السمو وهي حصيلة العفة والمروءة لحالة إمام شعراء الصوفية الوجدانية المحمودة.

إذ تنتهي التائية الكبرى إلى ذروة الوحدة الفنية المتفقة في توحد الشعور بصبغته في نطاق التجربة لتلقي روعة وتمثل تطورا منطقيا مع موافقة شعرية للقصيدة، وإذا تأملنا التائية الكبرى رأينا أنها تنقل وتجسد الشعور من حالة إلى حالة تتجلى موافقة.

وقد جاءت التائية في صورها الشعرية تعبيرا عن عاطفة الحب الإلهي وعن انفعاله الذي اتخذه موضوعا من الذات الإلهية. والانصراف عن سلطان الشهوة وعن عالم المادة، فمذهبه في الشعر الصوفي قد أسبغ عليه ثوبا فلسفيا في كثير من أنواعه حتى صار لبنة من لبناته ولعله كان أداة من أدوات التعبير الذي واصل امتداده أسبق به بعض من الفلاسفة الأوربيين أمثال ماليرانس وأسبينوزا وغيرهم في الصورة الشعرية[13] التي تساير الانفعال وتتواءم مع فكر شاعر الصوفية مكرسة عذوبة الموسيقى ومتفاعلة للانفعال ووجوهه، كذلك فضلا عن الصور الدقيقة التي تشكل تصوير الشاعر لمعانيه ولعواطفه وامتداد تجربته التي طبعت حياته على

وجه لم يتهيأ لكثير من معاصريه وخاصة الصوفية لاسيما الشعراء منهم، حتى صار ابن الفارض قدوة بارعة لغيره في العصر الأيوبي الذي خضع له من عوامل التنشئة الاجتماعية والتي كان فيها الشيخ الأكبر المتخلي عن المنصب وعن الجاه والعزلة عن الناس والسير في الطريق الصوفي سالكا مدارجه ومسالكه وقد صور أيضا المحبين في صورة الأسرار في كنف المحبوبة، تصويرا دقيقا مؤثرا موحيا، وقد استطاع ترويض الشعر حتى صار أداة صالحة للتعبير عن الحب الإلهي والمحبة الإلهية.

وتمثل التائية الصناعة وأن الرجل قد حقق كل ما تصبو إليه نفسه وما يجب عليه أن يحققه كإنسان حضاري راقي فني متجددا دوما، ولاسيما إذا كان في عزلته وخلوته عن الناس تتفتح أمامه المعاني الفنية انفتاحا قويا وتمثل قصيدة التائية الكبرى تأصيل ابن الفارض لمفهوم الصورة الجميلة في الخلق، وأضاء بها العلاقة بين الله عز وجل والإنسان.

ا- فقد حرص ابن الفارض على الجناس في تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك لأنه كان شغوفا به كلما واتته الفرصة ووجد السبيل إليه، مثال:

قضى وقضى، وهمت وهمت، وخالف وخالف، حميدة وحميدة، ومحنة ومحنة، ويهدي و يهدي.

ب- حرص ابن الفارض على الطباق والمقابلة مثل قوله من المطابقة، لعزة وغرة، حي وميت، واستعابوا واستحسنوا، وأحسن وأقبح، وقوله في المقابلة: "أنى تنكروني كهلا بعد عرفاني فتى" .

جـ- وقد حرص على الالتزام مراعاة النظير في القصيدة، مثل: وأشواقي وأثمي وعسى وعلا وعمي وصمم.[14]

د- وكذلك حرص ابن الفارض في تشبيهاته جيدة البلاغة البيانية، مثل قوله: ما مني الصبابة أيقنت، أي كل عظم في جسده فيه مرض، وقوله: تحلل روح، بين أثواب ميت كالباقي على آخر رمق والعجز.

هـ- وابن الفارض أكمل أداء التباين إلى منتهى معانيه كمال الاتصال، مثل قوله: جلت له شكري ما كان شيليتي، قوله: يتحرش بالجمال إلى الردى، كاد لولا أدمعي.[15]

و- إن ابن الفارض يوظف المعاني الكثيرة من المجازات والاستعارات بلفظ يدل على معنى رائع عالي في بلاغته، كقوله:

وكل العاشقين رعيتي وكل من في الحي أسرى يدي
وكل الجهات الست، نحو وأشهد فيها أنها لي صلت
وعن فرقة الفرق رفعتي هل نجت أنفسهم من قبضتي

وهذا من لسان مقام الجمع، ولما كان الحب نسبة بين المحب والمحبوب مقترنا بما يسميه ابن الفارض بالحب الإلهي، في حلاوته وعذوبته تنبعث دائما من نفس أظناها الحب وتيمها الوجد، حتى تصل الإلهي بالإنسي.

وتكتسي نهاية التائية الكبرى تأملات ابن الفارض فهي ذات لغة وأسلوب فيه التشبيه والاستعارة والصور الرفيعة بعد أن أرسى الشاعر في هذا الميدان الشوق بالتأثير اللفظي والوجد مقترن بالحب والخمر كناية، والأفراح التي تتحول إلى سكر. وهكذا كان عمر ابن الفارض إمام الصوفية وسلطانهم وهو القائل:

فني الحب، ها قد بنت عنه بحكم من يراه حجابا، فالهوى دون رتبتي
وجاوزت حد العشق، فالحب كلقلى وعن شأو معراج اتحادي رحلتي،
فطب بالهوى نفسا،فقد سدت أنفس الـ عباد من العباد، في كل أمتي
وفز بالعلى، وافخر على ناسك علا بظاهر الأعمال، ونفسا تزكت

وجز مثقلا، وخف طف موكلا بمنقول أحكام ومعقول حكمة.

الهوامش:

1.د/المنعم خفاجي محمد.التصوف في الإسلام وأعلامه، الطبعة الأولى دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر الإسكندرية 2002، ص 34.

2.د/البستاني كرم .ديوان ابن الفارض دار بيروت للطباعة والنشر 1399هـ/1979م. ص110.

3.د/محمد مصطفى حلمي. ابن الفارض والحب الإلهي . الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة 1971م ص264.

4.د/البستاني كرم. مرجع سبق ذكره .ص 89.

5.د/مصطفى حلمي.مرجع سبق ذكره.ص275.

6.د/بلقاسم خالد. الكتابة والتصوف عند ابن عربي .دار تويقال للنشر الطبعة الأولى دار البيضاء المغرب 2004.ص93.

7.د. إبراهيم .محمد تركي . قطوف من حدائق الفلسفة الإسلامية، دار الوفاء للطباعة و النشر الإسكندرية2006.ص90.

8.د/محمد المنعم الخفاجي مصدر سبق ذكره .ص 38 .

9.د/المنياوي عبد الرؤوف .الكواكب الذرية في تراجم السادة الصوفية.تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان. المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة 1994.ص116.

10. ينظر في مخطوط تائية ابن الفارض. 762 بيتا.

11. د/مصطفى حلمي.مرجع سبق ذكره.ص408.

12. ابن عبد الجبار النفري محمد.فلسفة التصوف. دار التنوير للطباعة و النشر والتوزيع بيروت (لبنان) 2007.ص54 وما بعدها.

13. المخطوط.

14. د/البستاني كرم. مرجع سبق ذكره ص 54 وما بعدها.

15. المصدر نفسه: ص52.